أونفونتان وفلسفته في تنفيذ الاستعمار الفرنسي بالجزائر 1839 – 1841 م

أ. مصطفى عبيد

جامعة المسيلة.

ملخـــــــص:

يعالج موضوع أونفونتان وفلسفته في تنفيذ الاستعمار الفرنسي بالجزائر جملة من القضايا الهامة التي تبين مدى اجرام الفرنسيين وارتكابهم الحماقات القصوى في حق الشعب الجزائري. فرغم انتماء أونفونتان إلى المدرسة السانسيمونية التي كانت تنادي بالعيش السعيد لكل الإنسانية والدعوة إلى التحرر من العبودية. إلا أنه كان استعماريا إلى أقصى درجة. فنظّر لبني جلدته الفرنسيين حول كيفية الاحتفاظ بالجزائر فرنسية إلى الأبد، خدمة لفرنسا والفرنسيين حتى ولو كلّفهم ذلك إبادة الجزائريين أو طردهم على الأقل من أراضيهم الفلاحية الخصبة إلى الصحراء القاحلة.

مقدمـــــــة:

حينما غزت فرنسا الجزائر، وبعد أن قوضت حكم الداي حسين، وفرضت عليه امضاء معاهدة تسليم القصبة في 05 جويلية 1830. لم تكن موقنة ببقائها بالجزائر أو الرحيل عنها. ذلك لأن الفرنسيين لم يكونوا –باعترافهم–[1] يعرفون عن الجزائر الشيء

---

1 كتب أليكسي دو طوكفيل سنة 1837 عن الجزائر مايلي:" رغم أن الشاطئ الإفريقي لا يبعد عن البروفانس سوى بحوالي 160 فرسخا بحريا، ورغم أنه تطبع في أوربا سنويا حكايات آلاف الأسفار إلى كل بقاع العالم، ورغم أنه تُنزلُ بها بمثابرة كل اللغات القديمة التي لم يعد يتحدث بها أحد، وكثير من اللغات الحية التي لم تتح لنا الفرصة أبدا للتحدث بها، فإننا لن نتصور بسهولة مقدار الجهل العميق الذي كنا عليه في فرنسا منذ فترة لا تزيد عن السبع سنوات بكل ما يمكن أن يتعلق بالجزائر: لم تكن لنا أي فكرة واضحة عن الأعراق التي تسكنها ولا عن أخلاقهم. لا نعرف كلمة واحدة من اللغات التي تتحدثها هذه الشعوب. البلد نفسه كان مجهولا لدينا وكذلك ثرواته وأنهاره ومدنه ومناخه. حتى أنه ليمكن القول أن سُمك الكرة الأرضية يفصلنا عنه". أليكسي دو طوكفيل، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 2008، ص 15، 16.

الكثير، ولذا بدأت نقاشات حادة بين المعارضين من ...

بالجزائر فرنسية أم العودة إلى باريس. فأخذت فرنسا فترة دراسة وجيز بـ استمرت على أربعة سنوات على المستوى الرسمي (1830 - 1834) وهي الفترة التي تعرف تاريخيا بمرحلة التردد. لكن هذه الفترة –في حقيقة الأمر– قد تجاوزت ذلك إلى أذهان أصحاب القرار من الفرنسيين. وحينما قلنا أن مرحلة التردد كانت أطول مما هو محدد تاريخيا (أربعة سنوات)، فذلك باعتمادنا على المصادر الفرنسية نفسها، وعلى رأسها أونفونتان الذي يتناوله بحده الدراسة. والذي دعا سنة 1843 إلى ضرورة الكف عن المناقشات حول موضوع الاحتفاظ بالجزائر من عدمه. ودعا إلى الاحتفاظ بها والشروع في تطبيق أولى أسس الاستعمار الفرنسي بها.[1] بل واعتبرها من أهم الممتلكات الفرنسية على الإطلاق، فكتب:"إن ممتلكاتنا في الجزائر ذات أهمية، فالسيطرة عليها هي بالنسبة لنا شرعية ولا يمكن التخلي عنها، بل ولا يمكن حتى السماح بفتح النقاش سواء بفرنسا أو هنا بالجزائر عن امكانية الاحتفاظ بمقاطعاتنا الإفريقية (يعني ممتلكات فرنسا في شمال إفريقيا أي الجزائر كما كانت تسميها فرنسا آنذاك). والتي هي لنا على قدم المساواة مع الألزاس واللورين".[2] كما أن أليكسي دو طوكفيل أيضا كان قد رفض فكرة التخلي عن الجزائر، فكتب سنة 1841 مايلي:"لا أعتقد أنه بإمكان فرنسا التفكير جديا في مغادرة الجزائر. سيكون تركها الجزائر في أعين العالم إعلانا أكيدا عن انحدارها (وتدهورها)...إذا تراجعت إزاء مبادرة حيث لا تواجهها فيها سوى الصعوبات الطبيعية للبلد ومعارضة قبائل همجية صغيرة تسكنها، فستظهر في أعين العالم وقد انحنت أمام عجزها واستسلمت لقلة شجاعتها".[3]

---

1 Enfantin, Colonisation de l'Algérie, Bertrand libraire, Paris, 1843, p 09. وقد كتب أونفونتان ذلك بعد أن لاحظ اتساع دائرة النقاش على مستوى المؤسسات والصحف. فدعا إلى وقف النقاش والالتزام بمبدأ الاحتفاظ بالجزائر واعتبر التخلي عنها وصمة عار في جبين المسيحية أمام كل ما قام به الإخوة بربروس في البحر المتوسط. كما ربط الاحتفاظ بالجزائر بالتكاليف الباهظة التي كلفهم إياها غزو الجزائر. وذلك حتى يكون مبررا لنهب الخزينة والاستيلاء عليها.

2 Ibid, p 07

3 دو طوكفيل، مصدر سابق، ص 33.

لمحة تاريخية عن أونفونتان والمدرسة السانسيمونية:

وُلد برتلمي بروسبير أونفونتان (Barthélémy Prosper Enfantin) سنة 1796، درس بالمدرسة المتعددة التقنيات (بفرنسا) وتخرج منها مهندسا، كما درس الإثنولوجيا (علم الإثنيات = الأعراق البشرية) وبرع فيه. واعتنق المذهب السانسيموني على يد أوليند رودريغز. وتميز بقوة التأثير على الأتباع حتى تبوّأ منصب الأب الروحي للسانسيمونيين بعد وفاة سان سيمون في 19 ماي 1825. أما المدرسة السانسيمونية التي ينتمي إليها أونفونتان، فهي تنسب إلى مؤسسها سان سيمون (1760– 1825) الذي نشط في إطار المذهب الاشتراكي المثالي خلال نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. وقد ساعدته ظروف أوربا خلال تلك الفترة المتميزة بعدم الاستقرار والحروب النابليونية على التأسيس لمدرسته هذه من خلال الدعوة إلى الإنتاج والتصنيع (كل إنتاج هو عنده صناعة) وتطوير الاقتصاد والثروة المالية، والوحدة بين العالمين الشرقي والغربي، وذوبان الفرد في الجماعة، والعمل من أجل تحقيق الحرية ومحو العبودية...

هذا، وقد تميز السانسيمونيون في فرنسا خلال بداية القرن التاسع عشر بمعاداتهم لتوجه السلطة الفرنسية سواء على الأيام الأخيرة لحكم نابليون أو خلال عودة الملكية من جديد إلى الحكم في فرنسا بعد مؤتمر فيينا سنة 1815. وهذا التوجه جعل الحكومة الفرنسية تنقم على قادتهم، وتسلط عليهم أقصى العقوبات. فطالهم السجن جميعا؛ وعلى رأسهم أونفونتان، الذي اختار بعث أتباعه إلى مصر حتى يجنبهم نظرة الشعب الازدرائية لهم بعد أن نعتتهم الحكومة الفرنسية بشتى أنواع الخيانة للأمة والوطن.

راهن أونفونتان على أتباعه هناك بمصر –قبل أن يلتحق بهم– لتجسيد أفكارهم المتمثلة في وحدة العالمين (الشرقي والغربي = الإسلامي والمسيحي) على أن يكون الغرب فاعلا والشرق مفعولا به، مع ذوبان الشرق في الغرب. والعمل على نشر الروح الإنسانية بين الشعوب، والقضاء على العبودية والتسلط... في إطار ما كان ينادي به المذهب الرومانتيكي السائد في الحركة الفكرية بأوربا آنذاك، وكذلك في إطار الفلسفة الاشتراكية التي نادى بها سان سيمون وكارل ماركس وبرودون...والأهم من ذلك كله الاتجاه الوضعي الذي جاء به الفيلسوف أوغست كونت الذي شكّل موضوع جدل بين الفلاسفة حول

إن كتاب هنري تيسو الاجتماع الحديث لم يتجه نحو سيمون، باعتبار أن كونت كان سكرتيرا لسان سيمون.[1] وفيما يخص علاقة أونفونتان بالجزائر، فقد عرفها قبل الاحتلال الفرنسي لها، لكن هذه المعرفة كانت معرفة سطحية. فقد كان يتردد عليها فيما بين 1816 – 1821، وقد كتب سنة 1843 :"إنني أعرف الجزائر التي زرتها ورحلت إليها وقطنت بها خمس سنوات من شبابي".[2] أما بصفة رسمية فإن أونفونتان قد التحق بالجزائر سنة 1839، حين عينته السلطات الإدارية الفرنسية عضوا في اللجنة العلمية لإنجاز موسوعة استكشاف الجزائر العلمي (L'Exploration Scientifique de l'Algérie) التي كانت فرنسا قد شرعت في انجازها بغية التعرف على الجزائر معرفة دقيقة. وقد تخصص في دراسة الإثنيات الجزائرية. فغاص في دراسة المجتمع الجزائري وخاصة إقليمي الشرق والغرب، كما كتب عن الشاوية. وواصل بحوثه هذه إلى غاية سنة 1841 تاريخ مغادرته الجزائر إلى فرنسا بفعل ظروفه الصحية ومنها إلى ألمانيا سنة 1843 للسبب نفسه.[3]

جمع أونفونتان أفكاره ودراسته عن المجتمع الجزائري في كتاب سمّاه استعمار الجزائر، (Colonisation de l'Algérie)، والذي كان مصدرنا الأساسي في هذه الدراسة الموجزة. وتكمن أهميته في أنه كتاب يعكس بوضوح أفكار أونفونتان في الدعوة إلى ضرورة احتفاظ فرنسا بالجزائر، وفي الأساليب الاستعمارية التي يراها ضرورية لتحقيق ذلك، وفي استحداث الملكية الفردية داخل الملكية الجماعية للأرض بالنسبة للجزائريين. تسهيلا لسيطرة الإدارة الاستعمارية والمعمرين عليها، من خلال عوامل الإيجار والانتقال والبيع.

---

1 لمزيد من التفصيل يرجى الاطلاع على: مصطفى عبيد، الفكر الاستعماري السانسيموني بمصر والجزائر 1833 – 1870، كتاب تحت الطبع، دار عالم المعرفة، 2013، ص 43 وما بعدها.

2 مصطفى عبيد، الجزائر في كتابات توماس (إسماعيل) أوربان، مذكرة ماجستير في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، بوزريعة جامعة الجزائر، 2008، ص 24. وكذلك: Georges Yver. Enfantin et L'émigration étrangère en Algérie. in La Revue Africaine N° 295. Année 1918. P 258.

3 عبيد، الفكر الاستعماري السانسيموني...، مرجع سابق، ص 44.

فلسفة أونفونتان في تنفيذ الاستعمار الفرنسي بالجزائر:

أ- في التزام فرنسا بالعمل وفق مبدأ الاستعمار:

'لملاحظ على أونفونتان أنه قد ضبط المصطلح حين تكلم عن الاستعمار (La Colonisation) أي ممارسة أساليب التعمير في الأرض. وفرق بينه وبين الاحتلال (l'Occupation)، لأنه رأى أن الدولة قد تحكُم ولا تستعمِر. وضرب هنا مثلا بالدولة العثمانية بالجزائر. التي في رأيه لم تستعمِر وإنما حكمت الجزائريين واستعبدتهم (على حد وصفه). لأنه كان يرى أن التملك والسيطرة يقضيان بأن تعمل الدولة شخصيا أو تشرف على العمل، وليس كما فعل الأتراك "حين استعبدوا الشعب في المدن وفي الأرياف. وتصرفوا كخلفاء لله في الأرض، دون أن يتكفلوا بأمر الزراعة ولا الصناعة ولا حتى الصرف الصحي. ولكنهم تركوا أوضاع المجتمع على حالها".[1] والواضح هنا أن أونفونتان رفض أن تكتفي فرنسا بمجرد الحكم أو الإدارة بالجزائر، أو أن تقف متفرجة عن الأوضاع كما فعل الأتراك (على حد وصفه)، فأكّد على ضرورة أن تتولى عملية الاستعمار وتسهر عليه بنفسها في ظل وجود المعمرين من جنسيات أوربية أخرى بالجزائر. "فهُم (أي الفرنسيون) من يتولون إدارة وحكم المجتمع الجزائري (الأهلي كما يسميه) في المدن وفي الأرياف... وفق ما يحقق الإنتاجية الفلاحية والصناعية ويوفر رأس المال، وتزدهر فيه طبقة التجار والبرجوازيين. وكذلك وفق سياسة تعليمية وقضائية ادماجية هدفها تحقيق ذوبان المجتمع الجزائري في نظيره الأوربي".[2] إن هذا الفكر الذي دعا إليه أونفونتان هو نفسه الذي كان يؤمن به السانسيمونيون في الجزائر ودعوا إليه، وهو واحد منهم كما عرفنا. ولذلك وتطبيقا لسياسة الاستعمار هذه التي دعا إليها رفقة زملائه، سارت فرنسا في تنفيذ ذلك من خلال جملة من الإجراءات، كان على رأسها تأسيس فيلق الأشغال العمومية بجيش إفريقيا (الجيش الفرنسي بالجزائر). فاستصلحوا الأراضي ونظّموا الأودية، وأنشأوا الشركات الكبرى كالشركة السويسرية، وأسسوا القرض والبنوك كبنك الجزائر، وشقوا الطرق البرية

1 Enfantin, Op. Ibid Cit. p 80.

يد الكثير من الجزائريين وتمنعهم من التعدين... كل ذلك لتطبيق مبدأ الاستعمار الذي هو في خدمة المصلحة الاستعمارية وعلى حساب الثروات الجزائرية وتصديرها إلى فرنسا والدول الأوربية.[1]

2- في تشجيع الهجرة الأوربية:

دعا أونفونتان الإدارة الفرنسية إلى تشجيع الهجرة الأوربية، ولكنه اعتبر أن التهجير العشوائي غير كاف لتنفيذ الاحتلال فشدّد على ضرورة أن "تشمل الهجرة الفلاحين والتجار والصناعيين ورجال العلم والفن من الرجال والنساء".[2] وفي ذلك تقليد منه لتجربة نابليون بونابرت في حملته على مصر (1798 - 1801)، قبل أن تخرج صاغرة. حيث سار بجيشين، كان الجيش الأول منهما جيشا عسكريا، فيما كان الجيش الثاني جيشا علميا. واعتبر حينها نابليون نفسه القائد العام للحملة عسكريا وعلميا.

وجدير بالذكر أن أونفونتان قد نادى بتشجع الهجرة تطبيقا للفكرة التي نادى بها أحد زملائه في المذهب السانسيموني وهو السيد سان مارك جيراردين والتي جاء فيها:" إن احتلال الجزائر لابد أن يكون أوربيا، مسيحيا، وليس فرنسيا بالخصوص، على أن يتم ذلك كله تحت السيطرة الفرنسية".[3] أي لابد أن تكون الهجرة أوربية وخاصة من الألمان والإيرلنديين الذين أعجب أونفونتان بنشاطهم وحيويتهم وحبهم للعمل، فيما يكون الاستعمار فرنسيا.[4]

3- في تأسيس المستوطنات والضيعات الفلاحية:

من بين الأفكار الرئيسية التي دعا إليها أونفونتان نجد دعوته الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى ضرورة تأسيس المستوطنات والضيعات الفلاحية. فكتب مايلي:"ولا بد أن نعمل المستحيل من أجل تأسيس قرى أوربية في الجزائر ونتولى نحن إدارتها".[5] والهدف من وراء ذلك عند أونفونتان هو ربط الجزائر بفرنسا ربطا وثيقا يصعب الخروج منه، من خلال

---

1 Edouard Henri Cordier .Napoléon III et L'Algérie. Ancienne Imprimerie V .Heintz. Alger.1937.p22 23 . ولمزيد من التوسع والتفصيل في هذه النشاطات يرجى العودة إلى: مصطفى عبيد، الجزائر في كتابات توماس أوربان، مرجع سابق، ص 26 وما بعدها.

2 Enfantin, Op. Cit, p 11.

3 Ibid, p 370 et Yver. Op. Cit, p 258 et suivante.

4 Enfantin, Op. Cit, p 11.

5 Ibid, p 133.

استقدام عائلات أوربية من أجل ممارسة النشاطات المختلفة سواء بالمدينة أو بالريف. أو التزاوج بين الرجال الأوربيين والنساء الجزائريات، والذي ينتج عنه تكوين أُسَر مرتبطة بالعرق الأوربي والأرض الجزائرية.[1]

4- في تحقيق التعايش بين المجتمعين الجزائري والأوربي:

اعتبر أونفونتان أن تحقيق التعايش بين المجتمعين الجزائري والأوربي هو أكبر عائق يواجه الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر. وصرّح بذلك بوضوح فقال:"هل يمكن تحقيق الارتباط بين الجزائر وفرنسا؟ وقد كان يرى أن أهم عوامل تحقيق الارتباط هو تحقيق التعايش بين المجتمعين.[2]

رأى أونفونتان أن تحقيق التعايش لابد أن يتم بمراجعة القوانين والتشريعات المتعلقة بالجانبين (الأهالي والأوربيين)، فتساءل:" ألا يكون ممكنا تحقيق الارتباط بين الجزائر وفرنسا بحفظ التشريعات والعادات والتقاليد الخاصة بالأهالي للأهالي، ونقل التشريعات والعادات والتقاليد الخاصة بالأوربيين للأوربيين؟" وخرج أونفونتان بقناعة بأن هذه الطريقة لن تؤدي إلى نتيجة لصالح الاستعمار والهجرة الأوربية وتحقيق التعايش بين المجتمعين. فدعا الإدارة الاستعمارية إلى أنه "في حالة رفض المجتمع الجزائري الخضوع للهيمنة الاجتماعية الأوربية والذوبان فيها فسيكون مصيره الدحر عن المناطق التي تنوي الإدارة الفرنسية الاستيطان عليها".[3] وبفعل هذه الصعوبات، ربط أونفونتان اخضاع الجزائريين واجبارهم على قبول التعايش، بالإشراف الفطن للدولة الفرنسية على تحقيق ذلك، من خلال "نقل العادات والتقاليد والخبرات والتصرفات والتشريعات الفرنسية ونظام ملكية الأرض الفرنسي إلى الجزائر"[4]. ولن يتم ذلك –حسبه– إلا بالوسائل التالية:

1- مواصلة العسكريين لضرباتهم العسكرية ضد الأهالي.

2- ايفاد الفلاحين الأوربيين ومنحهم الأراضي الخصبة لفلحها والاستقرار بها.

---

1 Ibid, p 12.

2 Ibid, p 127.

3 Ibid, p 128.

4 Ibid, p 128.

3- ضرورة تعميم اللغة الفرنسية للأهالي وتعليم اللغة العربية لفرنسيين حتى يسهل تأثر الجزائريين بالأوربيين وتأثير الأوربيين على الجزائريين.

4- ضرورة انشاء البلديات، وكذلك الحالة المدنية على النمط الفرنسي. من أجل التحكم في تسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج، والقيام بأعمال الري والاتصالات والصرف الصحي...[1].

5- في استحداث الملكية الفردية داخل الملكية الجماعية للأرض:

وإضافة إلى مشكلة تحقيق التعايش كان أونفونتان يرى أن من أكبر العوائق التي تمنع أيضا تحقيق المصلحة الاستعمارية بالجزائر وتطبيق الاستعمار بما هو نظام ملكية الأرض بالجزائر. وهو النظام المبني أساسا على الملكية الجماعية. ولذا دعا إلى ضرورة الاستحداث العاجل للملكية الفردية داخل هذه الملكية الجماعية للأرض.

كان موضوع ملكية الأرض بالجزائر موضوعا حساسا جدا، لأن الأرض مقدسة عند الجزائريين، ولعلاقته أيضا بمصادرتها من الجزائريين وتسليمها للمعمرين لبناء مستوطناتهم. أو لفلاحها واستغلالها وتوظيف الجزائريين كأجراء عليها عندهم بعدما كانوا هم مالكوها الحقيقيون.

ومفيد أن نشير إلى أن أونفونتان قد أعاب على أصحاب السلطة والإدارة الفرنسية، كيف أنهم لم يتمكنوا من رسم الصورة الحقيقة عن الملكية بالجزائر إلى غاية سنة 1843.

---

1 Ibid, pp 130 – 132. وفعلا فقد أصبح مترجمو الجيش الفرنسي ورؤساء المكاتب العربية من أهم المختصين في حقيقة المجتمع الجزائري سواء بالريف أو بالمدينة خاصة الذين تناولوه بالدراسة منهم مثل دوماس وأوربان وأونفونتان الذي نتكلم عنه. وفي دور الجيش الفرنسي والمكاتب العربية في الأرياف الجزائرية يمكن أن نذكر مايلي:" وقد اهتم الجيش كثيرا بالبحث في خفايا السلطة بالأرياف، وكلف ضباط رؤساء المكاتب العربية ومترجمي الجيش بالبحث في تلك الخفايا. وكان هدفهم من تلك الأبحاث ايجاد السبل السليمة، وغير المكلفة لحكم المجتمعات الريفية، والسيطرة عليها. وقد نجحوا فعلا، واستطاعوا التغلغل في أعماقها، وسيطروا عليها بنجاح بالنسبة لهم مدة 132 سنة، لأنهم كانوا يهتمون بكل الجزئيات الخاصة بالحياة الريفية مهما كانت تافهة أو ساذجة". يراجع: علي خنوف، السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق الجزائري نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي، مطبعة العناصر، الجزائر، 1999، ص 22، 23.

وأن الدراسات حولها قليلة جدا رغم أهميتها ورغم النقاشات الكثيرة المثارة حولها. وأشار إلى أن ملكية الأرض بالجزائر هي في الأصل ملكية جماعية بالأرياف (أراضي الأعراش والقبائل) وملكية فردية بالمدن (وهي الملكية العقارية). لكن هناك استثناءات ففي المدن هناك ممتلكات جماعية كثيرة وهي ممتلكات الدولة أو المؤسسات الدينية كمؤسسة الأوقاف مثلا. وكذلك الاستثناءات بالأرياف حيث نجد الملكية الفردية المتمثلة في المساكن والبساتين وخاصة بالمناطق الجبلية ببلاد القبائل.[1]

ورأى أونفونتان أن طبيعة الجزائريين الإسلامية والريفية أيضا (أغلب السكان ريفيون) وبصفتهم فلاحون ومربو مواشي، هو الذي جعل الملكية لديهم ملكية جماعية لا مكان فيها للانتقال لا عن طريق البيع ولا عن طريق التأجير. وأن شيخ القبيلة وهو ممثل الباي في الإقليم، هو من يتحكم في منح الفلاح قطعا أرضية لفلحها أو يمنعه من ذلك. تبعا لاستحقاقه ذلك من عدمه، بناء على امتلاكه إمكانيات الزراعة التي هي امتلاك زوج من البقر ومحراث خشبي على الأقل. وبذلك يصبح هذا الفلاح بإمكانه الاستفادة من فلح الأرض وتكوين قطيع من المواشي ليمارس حقه في الرعي على أرضه.[2]

وفي جانب آخر، ثمّن أونفونتان وافتخر بمصادرة الإدارة الاستعمارية الفرنسية لأملاك الأوقاف، فكتب: "لقد حطم الفرنسيون ملكية الحبوس، وقد مست كل أنواع الأوقاف الدينية وغيرها... وإن الملكية العقارية بالمدن قد صودرت وأصبحت على نفس الوضع تقريبا مع نظيرتها بفرنسا. فهي قابلة للتأجير والتبادل والبيع والانتقال والإدارة المباشرة".[3]

---

1 Ibid, pp 65, 66, 83. إن ملكية الأرض الزراعية بالجزائر خلال العهد العثماني: "كانت أنواعا عديدة منها: الملكية الخاصة، وملكية الدولة أو البايلك، وملكية الأوقاف وملكية العرش. ينظر: أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800 – 1830، دار الكتاب العربي، ص 58.

2 Ibid, pp 71, 80, 81.

3 Ibid, p 77. صادرت السلطات الفرنسية أملاك الوقف (الحبوس) وفرح أونفونتان لذلك، لأن الوقف كان على العهد العثماني مؤسسة قائمة بذاتها تعبر عن ملكية الأرض وعن أعمال الخير والوحدة والتكافل الاجتماعي. وقد تميز العهد العثماني بالجزائر كباقي الإيالات العربية التابعة للخلافة الإسلامية بتكاثر الأوقاف لاسيما خلال الفترة الممتدة بين القرنين 15 و19م، بفعل ازدياد نفوذ الطرق الصوفية وانتشار الزوايا وانتشار التكافل الاجتماعي بين الجزائريين نتيجة جور المظالم والضرائب الحكومية إضافة إلى

كما أشار أولفونتان على الإدارة الاستعمارية الفرنسية. بأن من يصادر الأرض ويتملكها ويسيطر عليها لابد أن يشتغل عليها ولن يتركها دون استغلال:" إن التملك والسيطرة يقضي بأن تعمل شخصيا أو تشرف على العمل".[1] ولابد أن نذكّر هنا أن هذه الأفكار قد وجدت طريقها إلى التنفيذ، فسياسة استقدام التشريعات الفرنسية إلى الجزائر واحلالها محل التشريع الإسلامي قد ضربت فيه فرنسا أكبر الأمثلة. كما أن سياسة الإخضاع والإبادة التي مارسها الجيش الفرنسي على الجزائريين قد شكلت أسوأ الصور في تاريخ البشرية والاجرام الحربي. وسياسة تشجيع الهجرة الأوربية إلى الجزائر وجدت تطبيقها أيضا. وكذلك دحر الشعب الجزائري إلى الأراضي القاحلة، وترك الأراضي الخصبة والمناطق الشمالية للمعمرين. أما سياسة استحداث الملكية الفردية داخل الملكية الجماعية فقد طبقت هي الأخرى حين تبناها توماس أوربان (إسماعيل عربان)، وطبقها الإمبراطور نابليون الثالث الذي أعلن عنها في رسالته الشهيرة إلى بيليسيي في 06 فيفري 1863.

الحملات الأوربية والكوارث الطبيعية. وقد كان أكثر نفعا لأهل البلاد ولأهل الأندلس المهاجرين إلى الجزائر (الموريسكيين)، وكذلك إلى المسلمين خارج الجزائر، حيث كانت توجه الإعانات من الجزائر إلى مكة والمدينة مع ركب الحج سنويا. والأوقاف التي كانت منتشرة بالجزائر آنذاك هي أوقاف الحرمين الشريفين، أوقاف الجامع الأعظم وبقية المساجد الأخرى (سواء الحنفية أو المالكية)، أوقاف سبل الخيرات، أوقاف الأولياء والأشراف وأهل الأندلس، أوقاف الجند والثكنات والمرافق العامة. للمزيد من التفصيل في موضوع الأوقاف يرجى العودة إلى: ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصرة)، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص ص 149، 196.

1 Ibid, pp 77.

من دراستنا هذه، تبين لنا أن أونفونتان كان ذا فكر خطر على الجزائر والجزائريين، وهو الشيء الذي استخلصته من قراءتي لكتابه "Colonisation de l'Algérie " أول مرة منذ سنوات خلت، في إطار اعدادي لرسالة الماجستير. فجعلتني قراءتي الأولى هذه، أفكر في العودة إلى تفحصه جيدا. وبعد أن عدت إليه، ونظرا لأهميته في توضيح كثير من القضايا في تاريخ الجزائر تحت الاستعمار الفرنسي كما ذكرنا، خطرت ببالي فكرة كتابة هذا الموضوع عنه. حتى يتبين الباحثون أن الروح الاستعمارية قد أعمت من الفرنسيين حتى من كانوا يُحسبون على خدمة الإنسانية، والنضال من أجلها. وكان أنصار المذهب السانسيموني الذي يقوده أونفونتان على رأسهم.

كما أننا أردنا بموضوعنا هذا، الإشارة إلى أن أصحاب التنظير الاستعماري لفرنسا بالجزائر كانوا كثر، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر، أونفونتان، وأوربان، وألكسي دو طوكفيل، وغيرهم. كلهم كانوا حملا ثقيلا على الجزائر وعلى المجتمع الجزائري. وهم من سددوا سهام الاستعمار لتصيب مقاتل الجزائريين فاستعبدوهم طويلا (132 سنة من الاستعمار).

كما أنني بدراستي المختصرة هذه، وددت أن أوجه أنظار الباحثين إلى المزيد من الدراسة حول هذه الشخصيات وتنظيرها الاستعماري لكشف المزيد عن تاريخ الجزائر، وعن أخطار الدمج والمسخ والإخضاع والإبادة والتغريب التي كانت تتهددها، وليس تأريخا لهؤلاء.